باب المراسلة والمناظرة

نشوء اللغة العربية

اذا نقد المقتطف تأليفاً ، تعرّض لموضوعه وجهاً لوجه ، دون القصد الى ما فيه من التعرّض استطراداً . فلقد وقفنا على نقد بعض المجلات السورية ، فاذا فيها ذمّ للغة العربية أشنع ذمّ وتقبيح لاصحاب معاجمها ، وتسديد سهام سامّة الى هذه اللسان وحيها . وما ذلك إلا لاننا أثنينا عليها ثناء طيباً في تضاعيف كلامنا ، فأظهر الكاتب بسوأته هذه انهُ من اقحاح الشعوبية ومع ذلك لم يذكر كلمة واحدة للموضوع الذي وقفنا كتابنا عليه اي نشوء اللغة العربية ونموّها واكتمالها . ولذا ارتدّ سهمهُ الى صدره فصرعهُ شرّ صرعة

نما المقتطف فقد جرى في الميدان جرياً حثيثاً سديداً مقتحماً اياه بأحسن أسلوب، على مألوف عادته وألطفه وأبدعه ، ولهذا نجيب على كلمته ما يبدو لنا

قال حضرة الناقد الثاقب في المجلد ٩٤ : ١٢٥ : « ونحن نرى ان مذهب العلامة الجليل على غرابته وبنائه على الافتراض لا على التحقيق العلمي لا يخلو من فائدة ومتعة »

قلنا : ان في ما ذهبنا اليه قواعد وضوابط تجري في اضّتها جرياً مطرداً ، وليس هناك غرابة ولا افتراض بل كلهُ تحقيق علمي ونظر دقيق ، اذ لكل حرف من حروف اليونانية واللاتينية مقابل لا يحيد عن منحاه قيد شعرة . فاذا كان مثل هذا ، يسمى غرابة وافتراضاً لا علماً ، فلا ندري كيف يكون العلم ، ولاعلى اي قوائم يقوم او ينهض؟ ولا ما يراد بالعلم في نظر الكاتب الجليل

واما سبب حياة بعض الكلم الدخيلة وتخليدها ، وموت بعضها الآخر وزوالها من عالم اللغة فهو لأن في تلك المفردات مادة وصيغة ووزناً ورشاقة وخفة مقتبسة كلها من مزايا الضادية وخواصها الخالدة ، على حدّ ما تُرى في العرب انفسهم ، إذ قاوموا جميع الامم وقارعوا الشعوب القديمة ، فنحوا وانقرضوا ، وناهضت لغتهم سائر الالسنة ، فكتب لها الفوز على ضرائرها . فكانت النتيجة انهم بقوا الى عهدنا هذا مستأسدين بلغتهم ، فكأنهم قدّوا من الجلمود ، بل قل الحق من صخرة الخلود !

فني (البنك) مثلاً اصل عربي وان لم يكن المعنى واحداً . فكفاها حياةً انها اقتبست صبغة وقوة من المادة العربية (ب ن ك) الضادية . وقل مثل ذلك على (التلفون) ففيه مادة (ت ل ف) والواو والنون من الكواسع المألوفة في منطق بني مُضَر ، بخلاف (التلغزة) فاذا سلمنا ان فيها مادة (ت ل ف) العربية ، فالزاي والهاء ليستا من الكواسع ، ولا مما تذيّل به المفردات

العدنانية . زد على ذلك ان السلف منّا لم يقابلوا الحرف الافرنجي "ڤ" بالفاء

اما (المباصرة) ومشتقاتها فقد تدخل في جميع مباحي بمعاني فتقول مثلاً : « هل المشهد بـ (المباصير) ، فيرى المشهد في (المباصرات) المستقبلة في دائرة واسعة » فقد قرأها الحربي لاول مرة ، عرف معناها او يكاد يعرفهُ ، وان لم يسمع باللفظ ، اما (التلفزة) فلا يفهم منها شيئاً . وربما رأى فيها شيئاً من الجرزة ، والجرمزة ، والجلهزة والحرمزة ، والدلزة ، او ما يشمّ منها رائحة الخرفشة والحنبشة ! ! !

وإما (التفيزيه) فخالف لما جاء منقولاً عن العرب وأنها (علم الطبيعيات) فما فعل بها ؟ فضلاً عن أنها مخالفة لما صرح به النحويون إذ قالوا : « وردت خمسة ألفاظ على وزن فعلياء وهي : كبرياء ولبياء وهبياء وسبياء وزبياء . (راجع روضات الجنات ص ١٥٦) . ومع قلة هذه المفردات الخمس ، لا نرى لها ذكراً ، اللهمَّ إلاَّ كبرياء وسبياء ولا نزيد عليها . فهل نضيف الى لغتنا رطانة على رطانة . وعندنا ما نستغني عنها ؟

وأما قول الناقد الجليل : « إن التعريب جرى عليه العرب في القرون الاولى ، فقالوا : قاطوريس وماينخوليا وإيساغوجي وأرثماطيقا والأسطرلاب (كذا . أي عطف معرفة على نكرة) ، وأقرابادين (كذا) وغيرها » فنحن لا نكره ولا نكره ولن نكره . لكن أيجهل أستاذي العلامة ان جميع المعربات ليست من قبيل واحد ، فبينها الرشيق والمأنوس ، وبينها الوحشي والحوشي ، فالعرب أخذت بناصية الأليف ، وردّت المريب المسيخ . فماش من الدخيل انقليل ومات الكثير فلا رحمة عليه . أو يجهل صاحبي الامام المنتقد ان معرّبي تلك الحروف كانوا أناساً واقفين على الإريّة واليونانية أكثر من وقوفهم على المدينة ، إذ كانوا احداثاً فيها . والدليل ان العرب الخلص وضعوا في مكانها حروفاً أخر ونبذوا في العراء تلك الرطانات التي تفزع الشياطين أنفسهم ، ولذا قتلوها قتلاً وحيًّا فقالوا في مكانها : مقولات وسوداء ومدخلا (إنَّهم ينظر في ايساغوجي علم كتاب في المنطق) وعلم الحساب

بقي الاسطرلاب ، فان ابناء عدنان رأوا فيها روحاً عربية أي (اسطرلاب) على ما يقول صاحب القاموس[1] ، فتركوها بدّمها تقاسي الأمرين ، والاّ لو تفسّحت تلك الأعجمية تنفّس

(١) يحسن بنا ان نذكر هنا ما يقوله الخوارزمي في من يؤول بعض الالفاظ الاعجمية تأويلا يناسب الاشتقاق العربي ولا يفكر في أن لا مناسبة بين هذا الاصل وذاك . وان ذلك التأويل من قبيل كلام الرجل بالحرف . قال في كلامه على الاسطرلاب وتأويله تأويلا عربياً : « الاسطرلاب معناه » « مقياس النجوم » وهو باليونانية (اسطرلابون) . (واسطر) هو النجم و (لابون) هو المرآة . ومن ذلك قيل لعلم النجوم (اسطرنوميا وقد يهذي بعض المولعين بالاشتقاقات في هذا الاسم بما لا معنى له . وهو أنه يزعمون ان (لاب) اسم رجل . و (أسطر) جمع سطر وهو الخط . وهذا اسم يوناني اشتقاقه من لسان العرب جهل وسخف » الخ

الاعاجم (فو جاز لنا هذا التعبير) لأجهزوا عليها واوردوها حياض الموارد التي لا يصادر لها

واما (الاقراباذين) فانت أبصر مني فيها وفي اضطلاعها ، فانها لا توجد في معجم لغة لان العرب الصميم لم تدخلها في جنة كلامهم ، فهي موجودة فقط في تصانيف بعض الاقدمين في العهد الذي كانوا يأتون بكل كلام اعجمي ، يوهموا الناس ان إغرابهم هذا يرفعهم الى اعلى مراقي العلم ، ويظهرهم للعوام انهم واقفون على أسرار العلم لوقوفهم على رطانة الاجانب !!!

واما الآن فانا لا نسمع في معناها إلا (تركيب الادوية) او « علم الصيدلة او الصيدنة »

واما « علم مظاهر الحياة » فهو كقولك « علم وظائف الاعضاء » ، لأنهُ لا مظاهر الم يكن ثمَّ وظائف فهما امران متلازمان . زد على ذلك ان بصراء العلماء وحُذاقهم رأوا في (الوظائف) — وهي جمع وظيفة — خروجاً عن معناها الفصيح الصحيح ، الى معنى مولَّد — وقد ولَّدتهُ قابلةٌ غير كيحة بمهنتها ، فهي « غير قابلة » لان تمتهن مهنتها ، فاصبحت الوليدة « غير قابلة » لتأدية معناها . ولهذا استحسن فريق أن يقولوا (علم مظاهر الحياة)

واما (اللاقطة) فانها — وان كانت تصلح لمعنى آخر عام — تصلح لأن يقيد معناها من باب تخصيص العام . وهذه خاصَّة من خواصّ اللغات الحية . وهو كثير في كلامهم ولا جرم ان حضرة الناقد يدري هذا الامر أحسن دراية ، بل أحسن مني بكثير ، لكنهُ يتجاهل وهذه اللاقطة التي تكلم عليها ، مأخوذة من المثل العربي الذي اشار اليه . فيكون كقولنا : كل كلام ينطق به الاسلكي قد يلتقطهُ هذا وذاك لسقوطهِ في نصيب الجميع . وفي ذلك من الاشارة الدقيقة اللطيفة ما يقيم العربية في اعلى عرش ينصب لسائر الالسنة

وادخال (اللام) على جواب (لو) المنفي و (ما) : هو من باب الزيادة اللفظية لأمر شيء آخر . وهو — وان كان ضعيفاً حسن الوقع في السمع

ومجيء (عدة) بمعنى عدد كثير ، وارد في كلام البلغاء الفصحاء قال اللغويون في تفسير اساغ : « اساغ فلان بفلان ، اذا تمَّ امره به ، وبه كان قضاء حاجته . وذلك انهُ يريد «عدة» رجال او « عدة » دراهم ، فيتم واجد ، به يتمّ الامر ، فاذا اصابهُ قيل اساغ به » — وفي المخصص في اجناس البُرّ والشعير : « ولبنيه (اي السنبل الجُعْرة) جروف « عدة » — وقال ابن السيكّيت في تهذيب الالفاظ : « يقال أتانا دَهْمٌ من الناس ، اي « عدة من الناس كثيرة » . وهناك غير هذه الشواهد وهي لا تحصى

وقولنا : « ان قس الكلمة اليونانية » فهو كقول سيبويه في مذحج : « الم من نفس الكلمة » (وراجع اللسان في ذحج) — وقال ابن المبارك وهو من أئمة اللغة والنحو في معنى قفير الطحّان : « هو ان يقول : أطحن بكذا وكذا ، وزيادة قفير من « قس » الدقيق » —

وقال ابن الأثير في النهاية في مادة (ثرد) : بل البلة والقوة ، اذا كان اللحم نضيجاً ، في المرق اكثر ما يكون في « نفس » اللحم — وفي لغة لبعض في باب التوكيد (٣ : ٧١) « ويُثرّد عليه نحو جاءني « نفس زيد » « وعين » عمرو » اي ذاتها . وفي التنزيل : كتب ربكم على « نفسه » الرحمة اي ذاته انتهى . — وقال ابن شُمَيْل : « السهم نفس » الفصل » (راجع اللسان والتاج في سهم) ولو اردنا الامعان في ذكر مثل هذه الشواهد لملأنا جزءاً من اجزاء المقتطف

و (التلغراف) مات حين ظهور (المُبْرق) للآلة . (والبرقية) لتبأ البرقي ، فهي حيَّة فقط على لسان غير العربي الصليب

وقد ذكرنا سبب الرفض لادراج مقالاتنا اللغوية في مجلة مجمع فؤاد الأول ، فلا حاجة في صدرنا الى العود اليه ، اذ لا عظيم جدوى فيه . وسلامٌ على المخلصين في مباحثهم ، كناقد المقتطف العلامة وكمنشئه الكاتب الشهير ومنهُ تعالى التيسير

والآن ليسمح لنا حضرة الناقد الجليل الاون ان نسأله كيف جاز لهُ ان يقول في ص ١٢٤ س ٢٣ : في التاسع عشرة بمعنى التاسعة عشرة

ثم أليس في قوله بعد سطر : في الرومية اليونانية خطأ طبع والصواب في الرومية واليونانية وهل ورد في كلام « فصحاء » العرب مثل قوله : تكلم « عنهُ » (ص ١٢٥) وهو يريد « تكلم « عليه » ! نعم يقال : تكلم « عنهُ » اذا تكلم نائباً عن رجل اما في موضوع من الموضوعات فيقال تكلم « عليه »

وقال في تلك ص ٢ س ١٧ : « ولا ادري لماذا يُحلّ الأب شيئاً ويحرّم آخر مثله » — وانا لم أحل شيئاً ولم احرم آخر . انما « استحسنت » استعمال بعض الكلم « وعجبت » طائفة اخرى لاغية والفرق ظاهر بين ما قلت وبين ما يعزوه اليَّ حضرتهُ

وقال في تلك ص ٢ س ١٩ : « وما دامت الكلمة عن العربية ... » والذي رأيتهُ مستعملاً في كلام بلغاء الفصحاء : « الكلمة على ... » وان لقوله وجه تخريج وتأويل ، لكن الصراط المستقيم اولى من اتباع الصراط المُلْتوي

وفي تلك ص ٢ س ٢٦ : « تثير المناقشة حول هذا الكتاب » . وانا لم اسمع بمثل هذا التعبير الذي يحتاج الى تخريج عميق وغوص بعيد في بحار التوجيه والتأويل ، ذلك التأويل الذي لا يخلو من تعسف انما المسموع ناقشهُ الحساب او في الحساب وناقشهُ الكتاب او في الكتاب والقائل صاحب اساس البلاغة ، وليس لي في هذا الانكار نافة ولا جمل . والله أعلم

مصر القاهرة الأب انستاس ماري الكرملي
من أعضاء مجمع فؤاد الاول للغة العربية